ذكـــرى .. ما امرها

عندما جثمت فوق صدرى الكروب وطفا على تفكيرى تيار الهموم وتمثلت لى مآسى الحاضر وذكرياته الأليمة ماردا جباراً متجهم الوجه جامد التعبير وهو يمسك بقبضته الفولاذية سوطاً غليظاً يهوى به على قلبى المعذب المحروم حتى يكاد يفريه فرياً ويمزقه تمزيقاً . . . والقلب المكلوم يتلوى ويتلوى من فرط العذاب . والسوط الجارح لا يكف ولا يرحم . لم يتحمل عقلى المبلبل التفكير فى ذلك. فعدوت إلى الشرفة وجلست .ورحت ألتهم الطبيعة الممتدة المترامية أمامى بنظرات زائغة حائرة فيها من الاستجداء الشىء الكثير . ولم تخيب الطبيعة ظنى فاستجاب صدرها الحنون الرؤوم لندائى واستولى هدوؤها الشامل الكئيب فى هذا المساء على خاطرى واستلفت جمالها الصامت الصارخ ناظرى . فرحت أنظر إلى الشمس الغاربة وهى تلفظ آخر أنفاسها . كأنها تودع الكائنات الوداع الأخير . ومددت البصر ومددته . كأنى أحاول بذلك أن اتخطى هذه العوائق الماثلة لألحق بها إلى عالمها المجهول . ورأيت الفلاحين - فى هذه المروج الفسيحة . من خلال حمرة الشفق وظلام الليل وهم يؤوبون إلى بيوتهم بعد أن اجهدهم الكدح طول النهار كالاشباح المتحركة . وهالنى المنظر وافزعنى أيضاً . حينما ، انطلق خيالى من عقاله وانقلبت الحقائق عنده إلى رؤى وأطياف . وشعرت فى تلك اللحظة باحساس دافق ملك على نفسى . وبجاذبية خارقة تجذبنى إلى هذا المنظر الماثل - كالحلم الجميل الرهيب - جذباً . وسرت فى كيانى هزة لذيذة خاطفة اهتز لها وجدانى وجاش لها جيشان نفسى . كان مصدرها السر الأعظم لهذ الكون بغموضه وجلاله وسحره . ونظرت إلى شجرة حزينة منفردة عن بقية الاشجار . ومثلت حالها بحالى . الوحدة القاسية المضنية . فبدت لى أغصانها من خلال هذه الجمرة المتقدة كالخطوط السوداء المتفرعة المتشابكة . وعاودنى ذلك الشعور المبهم أشعر به فى تلافيف الفؤاد ولا أستطيع عنه تعبيراً . وإنما هى نشوة كارثة وهزة شاعرية انتفض لها جثمانى . وقلت من الأعماق ، ما اعمق جمالك أيتها الحياة . بل ما أهولك» ورفعت بصرى قليلا عن هذه اللجة الدامية فهالنى منظر قطعة صغيرة من السحاب معلقة فى هذا الفضاء الرحب وقد كستها حمرة الشفق حمرة . وما أرهبنى بقدر ما خلبنى منظر هذه الشجرة المنعزلة وقد تفرعت منها الأغصان كانها تتشبث باطراف قطعة الغمام فخيل إلى أن قطعة الغمام معلقة على هذه الأغصان . ورفعت بعد ذلك بصرى إلى السماء اللانهائية . عتمة تامة . وافق رحب . وظلمات بعضها فوق بعض . ودار فى بالى وأنا غائب عن وجودى اننى تائه فى هذه البيادى المقفرة شارد بين افقها المرعب المهول واننى اتلمس طريق فى فيافيها البعيدة فلا اهتدى إليه . والتمس النجاة ولا أجد السبيل إليها . ويملأ قلبى الرعب ويستولى على الفزع حينما اتمثل فى خيالى التمرد وشياطينها وهى تطاردنى وتترصد لى على الجوانب وتسد لى المنافذ . حتى تضيق بى السبل . وتعيينى الحيل فتظهر لى أشباح العجز البغيض تغرينى بالاستسلام وتلح على بنبذ الصمود فلا أمتثل لأمرها ولا أطيع اغراءها وأفيق - تحت الحفها - وأنا كالمروع الوجل من كابوس ثقيل . ولكن يا للهول. هذه صور الواقع ومآسيه وأوصابه تتبدى لى وهى اشد جنوناً وأفتك وقعاً . ما أكاد اشعر بها مرة أخرى حتى يهيج هيجان حيرتى وتثور ثائرة آلامى ويندمل ما التأم من جراحى . فاين المهرب يارب . أين؟.

ع . ز

العدد العديد من الصحف التى تنشر آراءهم وتحقق غايتهم ، ولديهم المال الذى يشترون به الذمم ، وعندهم الممثلون فى «البرلمان» ولهم السطوة فى دوائر الأعمال ، وهم الذين يتحكمون فى صناعة «السينما» التى أصبحت قوة موجهة خطيرة فى البلاد المتحضرة ...إلخ

قلت : أليس هذا أدعى إلى أن نبذل من جانبنا شيئاً من المجهود؟ أم ترانا نركن لليأس لكى يكون المجال خصباً لأعدائنا يرتعون فيه ، حتى إذا انهارت آمالنا وأحلامنا ، لم نجد ما نصنعه إلا أن نذرف الدموع ، وأن ندبج المقالات وننظم القصائد ، حول حقوقنا التى أهدرت وآمالنا التى ضاعت!.

لقد أصبح العالم الحديث صغيراً بمساحته كبيراً بمشكلاته . وأخذت مصالح الأمم تتشابك وتتعقد ، ولن نستطيع أن نستخلص حقوقنا إلا إذا استطعنا إفهام الناس من نحن وما ذا نريد ؟.. وإلا إذا أمكننا أن ندعم رأينا بالدليل الأدبى والمادى ، وإذا قدرنا على أن نكون لأنفسنا قوة دافعة لها صداها الخارجى البعيد فى شتى الأجواء والأرجاء ... عندذلك نستطيع أن نقول لقد كنا... ولا زلنا.. وسنكون..

لندن — عبد العزيز حسين